اللغة والإبداع والتربية: مظاهر الترابط والتداخل المفهومي

عبد الله سيد عبد الله محمد غلام–دكتوراه في اللغة والأدب والحضارة العربية من جامعة تونس الأولى (كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية 9 ابريل)–

ملخص:

اللغة الإبداع التربية. مفاهيم تبدو في ظاهرها بسيطة، غير أنّ حقيقتها تبعث على البحث في رسم حدودها الدلالية، والتفتيش في طبيعة العلاقة بينها.

فاللغة التي نتكلمها، والتربية التي نُمارسها، والإبداع الذي نسعى من أجله، كلها أشياء تتداخل بشكل انعكاسي. يجعل الباحث في حيرة من أمره إزاء المفاهيم. حيثُ يلتبس المنهج بالموضوع، والغاية بالوسيلة. مما يُشكّل إرباكا للبحث العلمي من هذه الزاوية.

ويسعى هذا المقال إلى توضيح العلاقة بين هذه المفاهيم الثلاثة، وطبيعة التداخل بينها. مُركّزا على الدلالة في علاقتها بالممارسة الفعلية.

Abstract:

Language, creation, and education are three major concepts that though at first glance look simple turn out to be quite complex. This complexity comes from the fact that relationship that have with and between each other.With this respect, a researcher is intrigued by three factors: (1) the spoken language, (2) the practice of education, (3) and the sought-aftercreation. The carried-out approach might obscure the topic in question. The used materials might as well blur research objectives. Hence, these uncertainties when handling a scientific research produce ambiguous research papers.This article aims at examining the relationship between the three major concepts and their interrelatedness while keeping in focus their meaning in practical terms.

مقدمة:

يشكل عنوان هذه المقال مثلثا أضلاعه اللغة والإبداع والتربية، وتشكل العلاقة بين أضلاعه ما يرتَسم من زواياه الداخلية الثلاثة، غير أنّ الشكل الهندسي لهذا المثلث ذو طبيعة خاصة، وهو ما يجعل مقاييسه تختلف عن جميع المقاييس الهندسية الأخرى، حيثُ تستلزم دراسته الانطلاقَ من أحد الأضلاع الثلاثة، فيكون الشكل لذلك واصفا وموصوفا في الآن ذاته، وهو ما يعني صعوبةَ الدراسةِ والمنهجِ معا. وبما أنّ اللغة هي الوسيلة لدراسة جميع العلوم، وهي الشفرة التي يتواصل من خلالها المجتمع، فسنتخذها مطية لتحقيق هذا الغرض، فتكون هي الضلع الذي تنطلق منه الدراسة، لرسم ملامح العلاقة القائمة بينه وبين الضلعين الآخرين (الإبداع. التربية). فما هي اللغة؟ وما هو الإبداع؟ ثم ما هي التربية؟ وما العلاقة بين كلّ واحد منها والآخريْن؟.

ا . تعريف اللغة:

اللغة التي نتحدّث عنها في هذا المقام، هي اللغة الكلامية، إذ هي أداة الدراسات، وهي أيضا ذات طبيعة تتناسبُ مع أصل الدلالة لجدر عبارة "لغة"، وذلك لاشتقاقها من "لغا يلغو" بمعنى صوّت، وهذه الخاصية هي التي دفعت علماء اللغة قديما بتعريفهم إياها بأنها "أصوات يُعبِّر بها كلّ قوم عن أغراضهم[1]"، وهو تعريف لا يَفي بخصائص الأصوات المُعبِّرة والتي تُمثل تعريفا للغة، إذْ ليس كلُّ صوت مُعبِّرٍ يدخل في اللغة الكلامية. وقد عرفها اللسانيون المحدثون بأنها "نظام من الرموز اللفظية الاعتباطية التي يتم عن طريقها التعاون بين أفراد الجماعة الاجتماعية[2]"، وما يهمّنا في هذا المقام هو وصفها بأنها أنجع أداة ناقلة للمعنى، وصالحة لوصف الظواهر الكونية.

---

1 - ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ج1، ص 33

2 - Bloch, B. and Trager, G.L. Outline of linguistic Analysis, Baltimore, Waverly press. 1942. P.5

ا . 1 . مجال اللغة:

إذا كانت اللغة . انطلاقا مما تقدم . هي أنجع وأنجح وسيلة لنقل المعنى وتبادله بين البشر، فلا جرم من أن نسمح لأنفسنا بأن نقول إنَّ مجالها المعنى، ولأنّ المعنى ظاهرة كونية يشترك فيها جميع البشر فيمكن أيضا أن يُوصف مجال اللغة بأنه مجال مفتوح لا يُمكن أنْ يرسم حدُودَه سوى النشاطُ البشري المرتبط بجميع مناحي الحياة.

فهي بذلك مفتوحة على عالم المقاصد، أي أن مجالها التعبير عن مقاصد البشر المختلفة باختلاف دوافعهم واهتماماتهم. تلك الاهتمامات التي قد يتولّد عنها الإبداع من خلال اللغة. فما علاقة اللغة بالإبداع؟

ا . 2 . علاقة اللغة بالإبداع:

قد يبدو من الخطإ المنهجي أن نُحاول رسمَ حُدودٍ فاصلة بين اللغة وبين الإبداع، ترتَسِم من خلالها العلاقة بين الاثنين قبلَ أنْ نُعرّف الإبداع، إذ الفروق مرتبطة بالتصوّر.

غير أنّنا ندّعي أنّ مُخالفة المنهج . في هذا المقام . إن لم تُساعد على الالتزام به فقدْ تكون منهجا هي الأخرى، وينبني ادِّعاؤنا هذا على أنّ طبيعة البحوث والدراسات هي التي تتحكم في مُجريات المناهج لا غيرُ.

ولذلك فإننا نستخدم الإبداع هنا . في هذه النقطة . كمفهوم لُغوي، ولن يجدَ المُتلقي صُعوبةً في تقبله وفهمه انطلاقا من ذلك، وحين نخصُّه بالتعريف فيما بعدُ فإننا نستخدمه كمصطلح، وقد يظهر حينئذ عدم الخلط والتنافر بين المعنيين.

قد يُعتَرض على كلامنا هنا في العلاقة بين اللغة والإبداع بما تقدم في تحديد مجال اللغة، من أن مجالَها النشاطُ البشري ككل، إذ الإبداع جزء من هذا الكل. فما الداعي إلى التنصيص بالعلاقة بين الاثنين إذن وقد تقدم؟.

والجواب عن هذا أنّ الذي تقدّم حكمٌ وهذا مُستَندُه ودليله. وهو قائم على أنّ اللغة "هي أفضل مثال على الإبداع اليومي العادي؛ فالإبداع اللغوي هو الذي يُبَيِّن لنا أنَّ اللغة لا تُكتَسَبُ بالكامل من الخبرة أو التعلم. فلو أنّ اللغة تعتمد كُلِّيا على الخبرة لَوجدنا صُعوبةً في قولِ أشياءَ لم نسمعها من قبلُ؛ لذا فإن من المُحتمل أنْ يكون جهازنا العصبي حساسا للقواعد والأعراف اللغوية، وحَالَمَا نكتَسِبُ بضع قواعد ... فإنه يُمكننا توليدُ تعابيرَ أصلية من ابتكارنا. وهذه التعابير تكونُ أصلية – أي أننا لم نسمعها من قبل – ومفيدة، وبذلك فهي تنسجم مع تعريف الإبداع بأنه أصيل ومفيد[3]" على النحو الذي سنُبَيِّن لاحقا.

ومن هذا المُنطلق فإنّ اللغة وسيلةٌ للإبداع وموضوعٌ له، وقد اعتبر "جيبس Gibbs" المجاز نوعا من الإبداع المُستمر اليومي، فقال: "إنّ الناس يستعملون أربع استعارات رُوتينية واستعارتين جديدتين في كلّ دقيقة من حديثهم اليومي، وتُشير الاستعارات الروتينية ببساطة إلى الاستعارات غير الجديدة. لكنّ الاستعارات الجديدة تتطلب نوعا من التفكير الإبداعي[4]". وهو ما نُمارسه يوميا في مجال تواصلنا اللغوي. "وعلى ذلك فالإبداع اللغوي أكثر أهمية لعملية التفكير[5]"، فاللغة وسيلةٌ للإبداع وموضوع له.

---

3 ـ مارك رنكو، الإبداع نظرياته وموضوعاته البحث والتطور والممارسة، ت شفيق فلاح علاونة، مؤسسة الملك عبد العزيز ورجاله للموهبة والإبداع وشركة العبيكان للأبحاث والتطور، ط 1/ 1433 - 2012/ ص14

4 ـ السابق 23

5 ـ محمد عبد الرؤوف الشيخ، الإبداع اللغوي لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية العليا بدولة الإمارات العربية المتحدة قياسه وتنميته دراسة تجريبية، حولية كلية التربية جامعة قطر، العدد 14/ 1418 - 1997/ ص533

I . 3 . علاقة اللغة بالتربية:

لم نسُق بعدُ تعريفا للتربية، فَلْنعاملها إذن بما سبق مع الإبداع، بأنْ نعتبرَها هنا مفهوما لغويا شائعا لا إشكال فيه. ذلك أننا حين نسمع كلمة "التربية" فالذي يسبق إلى الذهن من دلالتها هو التعليم والتكوين والتدريب، وكلُّها أمورٌ تقومُ على أساس اللغة الكلامية، وهنا نتجاهل عن قصدٍ القضايا النادرة، كتكوين الأصمّ مثلا. إذْ المجال العلمي لا يَنْبَني على النادر، وإلا لامتنع الاستثناء.

سبق أن بيّنا أن اللغة هي وسيلة التواصل؛ والتربية بمعناها البسيط تواصلٌ بين المربِّي والمُربَّى، وتفاعلٌ بينهما، ووسيلة المُربِّي في عملية التفاعل هذه هي اللغة واللغة فقط. إذ لغة الكلام "تحفز وتبلور القدرة على الملاحظة، والتحليل، والمقارنة، والتصنيف، والاستنتاج، وتمثل الماضي، والتنبؤ بالمستقبل، بالإضافة إلى أن اللغة هي الوسيلة التي يتم عن طريقها نقل الثروة الثقافية إلى الأجيال الجديدة التي تقوم بدورها في تنميتها بمساهمتها الخاصة. أضف إلى ذلك أن أرقى أنواع التفكير هو الذي يعتمد على الرموز سواء أكانت لغوية أم رياضية[6]"، وهو ما يُفسِّر التوجُّهَ الهائل إلى دراسة اللغات المُسيطرة في الميدان العلمي، لتكون وسيلة لتدريس ذلك العلم ونشره في البيئة الاجتماعية ذات اللغة المُختلفة؛ "إذ أنّ امتلاك قدرات لغوية غير كاملةِ النمو هو بمثابة عجزٍ حقيقي في الاشتراك في جميع أوجه الحياة؛ وهو في نفس الوقت أمرٌ خطير لأنه يؤدي بالتالي إلى تخلف تربوي، أي أنه يخلق صعوبات في الفهمِ والتحصيل الدراسي والإبداعي، فالفشل الدراسي الذي كان يظهر في وقت من الأوقات في صورة رسوب متكرر، والذي يتم إخفاؤه اليوم عن طريق النجاح التلقائي هو إلى حدٍّ كبير راجع إلى عدم النضج اللغوي[7]". فاللغة إذن لا

6 ـ الإبداع اللغوي لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية العليا بدولة الإمارات العربية المتحدة قياسه وتنميته دراسة تجريبية، سابق ص534

7 ـ السابق ص 535

يُمكن أن يُفصل بينها وبين التربية، لا من حيثُ الممارسةُ الفعلية، ولا حتى من حيث تحديد مفهوم التربية كمُصطلحٍ أو مفهوم عام.

II . ما الإبداع؟:

ليس تحديد الدلالة اللغوية للإبداع بالأمر الصعب، إذ هو في الاستخدام العربي بمعنى السبق إلى الإنشاء. ومن أسماء الله تعالى البديع، وقد جاء وصفه به في القرآن في قوله تعالى: [[بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (البقرة 117)]]، "ومعنى المبدع: المُنشئ والمحدثُ ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحدٌ. ولذلك سُميَ المُبتَدع في الدين مُبتدعا؛ لإحداثه فيه ما لم يسبقه إليه غيره. وكذلك كل مُحدثٍ فعلا أو قولا لم يتقدمه فيه مُتقدمٌ، فإن العربَ تُسميه مُبتدعا، من ذلك قول أعشى بني ثعلبةَ في مدحِ هَوْذَةَ بنِ عليٍّ الحنفيِّ:

يُرْعِي إلى قَوْلِ ساداتِ الرجالِ إذا أبدوْا له الحزمَ أو ما شاءَه ابتدَعا

أي: يُحدثُ ما يشاء[8]". لكنّ تحديد مفهومه المصطلحي أمرٌ في غاية الصعوبة. وذلك لعدم تحيُّزه معرفيا لحقلٍ علمي مُعيَّن.

وسنحاول الكشف عن بعض الاستشكالات التي تتعلق بمفهوم الإبداع من خلال ما سنسوقه من تعريف، لكي يكون ذلك وسيلة لجلاء بعض الغموض الذي يعتريه.

يُعرِّف البعض "الإبداع" بأنه "النظر للمألوف بطريقة غير مألوفة بمزيج من الخيال والتفكير العلمي المرن، لحلّ مشكلة أو لتطوير فكرة قديمة أو لإيجاد فكرة جديدة ينتج عنها إنتاجٌ متميّزٌ غيرُ شائع يمكن تطبيقه واستعماله[9]"، وهذا التعريف ينطلق من الممارسة والمحاولة للإبداع، بخلاف التعريف اللغوي السابق

8 - الطبري ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1/ 1422هـ - 2001م ج464/2

9 - المصري رضا، مشروع الابن المُبدع، القاهرة: الأقلام الهادفة للنشر والتوزيع، ط1/ 2010م ص 12 - 13

الذي ينطلق من تحقق فعل الإبداع. والذي يظهر من خلال تعريفات الإبداع وما يعتريها من تشتت، أنّ كلّ ما اعتراها من ذلك يعود إلى اختلاف زوايا النظر إلى مفهوم الإبداع، إذ هو عملية تتألف من فاعل موصوف بالإبداع، ووسيلة أو أداة تتمّ من خلالها عملية الإبداع، ومجال يكتنف عملية الإبداع، ونتيجة تترتب على الفعل.

وقد عرف بعض الباحثين "الإبداع" بأنه "صفة كامنة نتشارك فيها جميعا، وهي موهبة يجب أن نوظفها في حياتنا على نطاق واسع[10]"، وإذا كان الإبداع صفة كامنة نتشارك فيها جميعا، فكيف يكون للتخصيص بوصف الإبداع معنى، إذ الإنسان انطلاقا من التعريف المتقدم كائن مُبدع، ثم إنّ الإبداع إذا كان قدرةً فهو موجود بالقوة، فلم نُسميه إبداعا قبل أن يُوجد بالفعل؟.

والحقيقة أنّ الغالب في مفهوم الإبداع أن يستخدم وصفا، كأن يُقال فُلان مُبدع، أو أن يقال القدرة الإبداعية، التفكير الإبداعي. وما ذلك إلا لأجل تلمّس حدود مفهوم هذا المصطلح، إذِ الوصف به يدعو إلى التساؤل كيف يتسنى الوصف بالإبداع؟ أو بعبارة أخرى ما هي الخصائص التي ينبغي توفرها في الموصوف بهذه الصفة؟

حين نبحث عن إجابة على هذا السؤال فقد لا نجد جوابا أنسبَ إلا بالرجوع إلى تعريف الإبداع اللغوي، فيكون كلّ من أنشأ فعلا لم يُسبق إليه مُبدعا.

II . 1 . الإبداع والذكاء:

يربط كثير من الباحثين بين الإبداع والذكاء، فقد ذكر "(جتسيلز Getzels) و(جاكسون Jackson) مثلا، أن الإبداع لا يختلف اختلافا واضحا عن الذكاء. وقد كانت هذه النتيجة مبنية على بحوث تجريبية أُجريت على مجموعات معقولة من الطلاب، تقدّم كلٌّ منهم لاختبارات مُتعددة تقيس قدرته الإبداعية الكامنة، إضافة إلى معلومات جُمعت عن الطاقة الذكائية التقليدية لكلٍّ منهم، ولتبسيط بعض النتائج

[10] ـ الإبداع نظرياته وموضوعاته، سابق 14

نقول: إن مقاييس القدرة الإبداعية الكامنة ومؤشرات الذكاء التقليدي كانت مترابطة، ولم يرد في النتائج أن هذين المفهومين مستقلان عن بعضهما بعضا[11]"، وهذا الخلط راجع إلى فهم طبيعة المفهومين، حتى إنّ تعريفاتهما تتطابق في بعض الأحيان لدى البعض. إذ يرى البعض أنّ الإبداع إذا ما كان قدرة . على نحو ما تقدم . فإنّ الذكاء كذلك "قدرة عقلية عامة أو مجموعة قدرات تمكّن الفرد من التعليم واكتساب المعرفة واستخدامها في حل المشكلات واتخاذ القرارات والتكيف مع البيئة ومع الآخرين[12]". والذي يبدو من هذا الربط أنه ناتج عن تغيب الممارسة وتجسّدها في الواقع، والتركيز على الاستعداد والقابلية. وإلا فلو ربطنا الإبداع بتحقق فعله، لَما ظهر من الترابط بينه وبين الذكاء ما يراه الباحثون على النحو المُتقدم، إذِ الواضح من الإبداع أنه يتعلق بالمستقبل، والذكاء لا يتعلق بالمستقبل بالضرورة، كما أنّ الإبداع نشاط مستمرٌّ مُتجدّد دائما، والذكاء ليس كذلك. غير أن هذا لا ينفي الترابط بين الاثنين، إذ القدرات البشرية، المُتمثلة في الاستعدادات الفطرية، قابلة للتربية والتطور، على نحو ما سيتضح لاحقا. وإذا كان الحال كذلك فإنه يحق لنا التساؤل عن طبيعة التربية.

III . ما التربية؟:

يدور مفهوم التربية في اللغة العربية حول معان هي الزيادة والنماء والإصلاح والتنشئة والتعليم، وهي معانٍ تُوحِي بالتدرُّج، إذ كل معنى من هذه المعاني يتطلب انتقالا من نقيضٍ إلى نقيضه بطريقة متدرجة، "وعلى هذا فالإنماء والتدرج يمثلان أهم قانونين يحكمان طبيعة الأعمال التربوية ... وأعتقد أن أصل الوضع اللغوي على درجة عالية من الشفافية والوضوح[13]". وهو يُشعر بأنّ التربية ممارسة آنية ومستمرة، تستهدف فئة عمرية مُعينة، وقد جاء في

---

[11] ـ السابق 14

[12] ـ مشروع الابن المبدع، سابق 14

[13] ـ عبد الكريم بكار، حول التربية والتعليم، دار القلم، 1432هـ 2011م ط1/ ص 11 - 12

القرآن ملمحٌ لهذا المعنى، وذلك في قول الله تعالى: [[وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا. (الإسراء24)]]، وربما شمل الصّغر إضافة إلى السِّن، جوانب الحياة الأخرى، كالتعليم والتأديب وغيرهما، فيكون محور التربية الإنسان، وزمانها الحاضر، وغرضها تكميل نقص الإنسان، وغايتها بناء المستقبل، فهي انطلاقا مما تقدم "تنشئة الإنسان شيئا فشيئا في جميع جوانبه[14]"، فهي عملية شاقة لاستمرارها وتعلقها بجميع جونب الحياة.

وإذا كان الإنسان انطلاقا من عملية التربية هذه يسعى إلى الإبداع والاختراع، حفاظا على وجوده البشري، وتكيُّفا مع منظومته الكونية، فما العلاقة بين التربية والإبداع؟.

III . 1 . علاقة التربية بالإبداع:

إذا كان الإبداع في جانب منه يتعلق بقدرات الإنسان، وكانت التربية تقوم بتفعيل وتنمية تلك القدرات، فإنه من الطبيعي أن لا ينفكّ الإبداع عن التربية. إذ الدراسات التي تهتم بمنشأ الإنسان تتفق على "أن الإنسان كان في مراحله الأولى بدائيا لكنه مُهيئٌ بيولوجيا لتشغيل بنية الأنظمة المعرفية المحفورة داخل الشبكات العصبية بدماغه، وهي فقط في انتظار الاحتكاك بالمحيط لتبدأ في الاشتغال والتدرب، وبالتالي النمو والتطور[15]"، وهو الدور الذي تقوم به التربية، سعيا إلى تهيئة القدرات البشرية للفاعلية التي تتجسّد في سلوكٍ مُخالفٍ لطبيعة التربية ومبنيٍ عليها، فيكون إبداعا لذلك، إذ "الإبداع يرتبط بالخبرة أحيانا[16]"، فيصبح التعليم "عبارة عن سيرورة تسمح للفرد باستعمال تجربته السالفة المسجلة

---

[14] ـ الحازمي خالد بن حامد، أصول التربية في الإسلام، دار عالم الكتب، 1420هـ 200م ط1/ ص19

[15] ـ منير زكري، النماذج المعرفية الحديثة للاكتساب اللغوي التوجه التكنولوجي في البحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقص، وحدة البحث في تحليل الخطاب، 2006م ص232

[16] ـ الإبداع نظرياته وموضوعاته، سابق ص 14

في الذاكرة، لتغيير معارفه وسلوكاته حسب شروط سياق المحيط الجديد التي يواجهها، وبهذا المعنى يعمل التعلّم على تغيير الذاكرة ...

إن الفرد لا يستطيع اكتساب "معارف جديدة حول محيطه وتغيير سلوكه إذا لم يكن بمقدوره مُقارنة مداركه الحالية مع الذكريات التي سبق أن خزّنها في الذاكرة ولاحظ أنّ الأمر يتعلق بمعلومات جديدة. عكس ذلك لن تكون هناك ذاكرة بدون سيرورة لاكتساب المعلومات وتَحيِينها[17]"، وتوظيفها في الحاضر لاستشراف المستقبل.

III . 2 . التربية الناجحة إبداع:

انطلاقا مما تقدم من تعريفٍ للتربية وللإبداع كذلك، يمكن القول بأن التربية ليست على درجة واحدة من الكفاءة في المنهج والممارسة، إذ لو كانت كذلك لكانت مُخرجاتها مُتجانسة ونتائجها مُتطابقة، وهو ما يشهد الواقع بخلافه.

فقد لاحظنا في الآونة الأخيرة التصنيف التعليمي يُمايز بين المراكز العالَمية على أساسِ معاييرَ مُعيّنةٍ، تخلُق فوارق تتفاوت فيها مراكز التعليم هذه، وهو ما يعني إمكانية ارتباط الإبداع ببيئات مُعيّنة، حسب نجاح العملية التربوية. فتكون لذلك المراكز الأقلّ نجاحا أقل إبداعا في الممارسة وفي الإنتاج على حدّ السواء.

وهنا نتحدّث عن التربية في جانبها المرتبط بالقدرة الفطرية تنشِئةً وتنمية، لكونها هي التي تُحافظ على التوازن بينها وبين التربية البيولوجية الحتمية؛ تجنُّبا للانفصام في الشخصية الواحدة.

إذ لا شك أنّ "التربية الواعية تعمل على تنمية نضج الشخصية الإنسانية عبر درجات ثلاث من العادات النفسية . الاجتماعية. وهذه الدرجات هي:

- درجة الاعتماد على الغير Dependence
- ودرجة الاستقلال عن الغير Independence
- ودرجة تبادل الاعتماد مع الغير Interdependence

---

[17] ـ بنعيسى زغبوش، الذاكرة واللغة مقاربة علم النفس المعرفي للذاكرة المعجمية وامتداداتها التربوية، عالم الكتب الحديث، 1429هـ 2008م ط1/ ص34

والإنسان يبدأ طفولته من الدرجة الأولى معتمدا على غيره في التغذية والرعاية والإرشاد ... ثم يبدأ الاستقلال التدريجي إلى أن يبلغ درجة يرعى فيها نفسه ويدير شئون حياته. ولو قُدّر له الاستمرار في النمو فسوف يرتقي إلى درجة ثالثة من النضج الذي ينتهي به إلى أحد مصرين: إما النضج الجسدي والعقلي والعاطفي الذي يُوفر له التعاون مع الغير باستقلال وفاعلية. وإما النضج الناقص، حيثُ ينتهي إلى النضج الجسدي، ويبقى طفلا أو مراهقا في عقله ومشاعره، أو يصل إلى النضج العقلي والعاطفي ويبقى مُعتمدا على الآخرين في جسده[18]".

وأنجح عملية تربوية هي ما أَفْرَزَت الاحتمال الأول، الذي يتمتع فيه الفرد بنضج جسدي وعقلي وعاطفي، يُتيح له التعاون مع غيره باستقلالية وفاعلية.

وأما الاحتمالات الأُخَرُ فتُمثّل العملية التربوية في جانبها السلبي، الذي لا يقود إلى الإبداع بحال من الأحوال.

ذلك أن الفئة المُستَهدَفة بالعملية التربوية تخضع لمقياسيْن تربوييْن، أحدهما حتميٌ وهو الذي يرتبط بجانب النمو الجسدي، والثاني غير حتمي وهو موضوع التربية الفعلي.

وليس من المبالغة القول بأنه يُمكن حصر موضوع التربية في مُواكبة غيرِ الحتمي للحتمي، فيكون نجاحها مرهونا بنجاحها في عملية المُواكبة المُعقّدة هذه.

ونُلاحظ وجود عملية انعكاسية بين التربية والإبداع. إذ إبداعُ مناهجَ وممارساتٍ تربويةً هو الذي تتولد عنه التربية المتكاملة، والعملية التربوية المتكاملة ينتج عنها الإبداع.

فلا يُمكن تصوّر إبداع في غياب تربية ناجحة، كما لا يُمكن تصوّر تربية ناجحة في ظلّ غياب الإبداع والابتكار.

18 ـ الكيلاني ماجد عرشان، التربية والتجديد وتنمية الفاعلية عند العربي المعاصر بحث في الأصول السياسية للتربية والتعليم في الأقطار العربية، دار القلم للنشر والتوزيع، ط1/ 1426 هـ - 2005م. ص33

خاتمة: لا شكّ أن اللغة التي هي أداة الترابط والتآلف بين المُكوّن البشري تُعتَبَر أهمّ الركائز التي تقوم عليها التربية والإبداع على حدّ السواء، ذلك أن العملية التربوية بجميع جوانبها لا تعدو كونها تفاعلا بين مُستَهدِف ومُستَهدَف، وهذا التفاعل إنما يقوم على أساس اللغة.

وهنا تجدُر الإشارة إلى أنّ اللغة كلّما قوِيت بحُضورها السياسي صارت سائدة، وصارت وسيلةَ التحصيلِ العلمي، والإبداع والابتكار، فيجد غيرُ الناطق بها نفسَه مُكرها لتحصيلها، لارتباطها بالتربية من ناحية وبالإبداع والتقدم من ناحية ثانية. وكُلّما قويت كذلك في نفس المتعلم من حيثُ امتلاكها وإتقانها كانت أنجح في نتائج التحصيل العلمي. فاللغة من هذا المُنطلق تفتقر إلى قوتين: خارجية سياسية، وداخلية مُكتسبة.

ومن المُلاحظ أن التربية لا تنفكّ هي الأخرى عن القوتين اللتيْن تفتقر إليهما اللغة، وهو ما يعني بالضرورة ارتباط الإبداع بهما، إذ هو مظهر من مظاهر الكفاءة التربوية واللغوية معا.

وما نُلاحظه اليوم من ضعفٍ لحضور اللغة العربية لا يعدو كونه نتيجة من نتائج غياب القوتين السابقتين، فلم تعُد اللغة العربية اللغة المُسيطرة على المستوى السياسي، ولم يعُد الناطقون بها يتمثلونها تمثل المُتقن ابن اللغة، بل ولم يعُد الناطق بها يشعر بالاعتزاز بها ولا الانتماء إليها، مما غيّب حضورها في مجالاتٍ علمية كثيرة، وقد كان بالإمكان لو حصل ما غابَ أن تحضُر في مجال تدريس العلوم العلمية والتقنية.

وإذا ما أردنا أن نُجمل القول فإن أي عملية تربوية قادرة على إنتاج مُجتمع مُبدع لا بُد أن تعتمد اللغةَ الأمَ بشكل قوي وفاعل. ولا شك أن التربية جُزء من تقوية اللغة سواء من حيثُ امتلاكها أم من حيثُ الاعتزاز بها، والإبداع وليد هذا الترابط.

فمن غابت لُغته غابت هويته، ومن غابت هويته غاب حُضوره، ومن غاب حضوره غاب إبداعه، ومن غاب إبداعه بقي في المُؤخرة يقْفُو أثر المتقدمين. فاللغة والتربية والإبداع مفاهيم متداخلة ومُترابطة، بل ومُتشارطة كذلك.

قائمة المراجع

1 . ابن جني أبو الفتح عثمان، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتب المصرية

2 . مارك رنكو، الإبداع نظرياته وموضوعاته البحث والتطور والممارسة، ت شفيق فلاح علاونة، مؤسسة الملك عبد العزيز ورجاله للموهبة والإبداع وشركة العبيكان للأبحاث والتطور، ط 1/ 1433 . 2012

3 . محمد عبد الرؤوف الشيخ، الإبداع اللغوي لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية العليا بدولة الإمارات العربية المتحدة قياسه وتنميته دراسة تجريبية، حولية كلية التربية جامعة قطر، العدد 14/ 1418 . 1997

4 . الطبري ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1/ 1422هـ . 2001م

5 . المصري رضا، مشروع الابن المُبدع، القاهرة: الأقلام الهادفة للنشر والتوزيع، ط1/ 2010م

6 . عبد الكريم بكار، حول التربية والتعليم، دار القلم، 1432هـ 2011م ط1

7 . الحازمي خالد بن حامد، أصول التربية في الإسلام، دار عالم الكتب، 1420هـ 200م ط1

8 . منير زكري، النماذج المعرفية الحديثة للاكتساب اللغوي التوجه التكنولوجي في البحث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقص، وحدة البحث في تحليل الخطاب، 2006م

9 . بنعيسى زغبوش، الذاكرة واللغة مقاربة علم النفس المعرفي للذاكرة المعجمية وامتداداتها التربوية، عالم الكتب الحديث، 1429هـ 2008م ط1

10 . الكيلاني ماجد عرشان، التربية والتجديد وتنمية الفاعلية عند العربي المعاصر بحث في الأصول السياسية للتربية والتعليم في الأقطار العربية، دار القلم للنشر والتوزيع، ط1/ 1426 هـ . 2005م.

11 - Bloch, B. and Trager, G.L. Outline of linguistic Analysis, Baltimore, Waverly press. 1942.